شهيد الخرطوم

او غوردون باشا

اصدر المستر بيير كرايتس القاضي الاميركي في محكمة مصر المختلطة الابتدائية كتاباً نفيساً بعنوان « غوردون : الخاسة والسودان » تتبع فيه حياة غوردون من ناحية عمله في فتح السودان ومحاربة النخاسة وانحصاره في الخرطوم وغير ذلك من الحوادث المتصلة بتاريخ مصر الحديث اوثق اتصال. وقد كتب المؤلف كذلك مقالة في مجلة آسيا الاميركية لخصناها في ما يلي واغا نشير على المهتمين بهذا الموضوع ان يجعلوا المقالة نموذجة لقراءة الكتاب . وهو يطلب من مكتبة الاخبار المصرية بشارع قصر النيل

احتفل في ٢٨ يناير سنة ١٩٣٣ بالعيد المئوي لولادة غوردون «الصيني» ولابدّ ان يكتب الكتّاب احتفالاً بهذا الحادث بضع تراجم جديدة للضابط الانكليزي الشديد التمسك بالدين والذي قاد الجنود الصينية الى النصر في فتنة تايبنغ سنة ١٨٦٣ و ١٨٦٤ ثم دافع بعد ذلك عن الخرطوم دفاعاً موسوماً بالبسالة ومثيراً للاشجان مما يقلّ نظيرهُ في مأساة الحرب

وفي مدة حياته تباري الكتّاب في المبالغة بذمهِ وبمدحهِ . ويقول معاصرونا في تقدير صفاتهِ انهُ بطل عسكري وديني معاً ماش للانسانية لا لنفسهِ

كان لتشارلس جورج غوردون عينان زرقاوان خلابتان تولدان الثقة في الناظر اليهما ويكتسب صاحبهما بهما الاصدقاء . وكان في صوتهِ نعومة ورنة يعرف بهما « الرجل » الانكليزي الكريم وكان اقرب الناس الى القلوب واكثر الجنود تمسكاً بالمسيحية

وقد مرّت الى الآن خمسون سنة منذ اصبح في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ « شهيد الخرطوم» ولكن المناقشة التي قسمت انكلترا حينئذٍ معسكرين وتلاميذ السياسة الخارجية في العالم كله حزبين لم تخمد ويلوح انها سوف تدوم الى الابد

وقد يكون المثل القائل ان الولد ابو الرجل صحيحاً ولكن لم يكن في حداثة غوردون ما يدلُّ على اخلاقهِ وصفاتهِ التي اشتهرت فيما بعد . فقد ولد في ٢٨ يناير سنة ١٨٣٣ وكان الابن الرابع في عائلة مؤلفة من احد عشر ولداً . وكان ابوهُ جنرالاً في الجيش البريطاني وعني بتربيته تربية عسكرية . ولكن مرّ زمان ظهر فيهِ ان «شقاوتهُ» في المدرسة الحربية قد تضطرهُ الى تَرك الخدمة العسكرية لانه كان شديد الايذاء لنطلبة الذي لم دونهُ في السفوف ووبخ مرة على ذلك فانتقل من قسم المدفعية الملكية الى المهندسين الملكيين في المدرسة العسكرية الملكية لهذا السبب

ولما ترك مدرسة وولتش للخدمة ضابطاً في قسم المهندسين امر بالذهاب الى جبروك وعهد اليه في وضع رسوم لبناء حصون عند مدخل الميناء . وفيما كان هناك تملكتهُ الافكار الدينية فكان يصلي بغيرة رجل متجدد ويكثر من قراءة الكتب الدينية وتغير نظرهُ الى الحياة تغيراً كاملاً

ثم شبت نار حرب القريم فانتدب للخدمة في خنادق سباستبول فامتاز بالشجاعة وهو ابن ٢٢ سنة . وبلغ من ثقة وزارة الحربية بهِ انهُ لما شهرت بريطانيا الحرب على الصين سنة ١٨٦٠ وجّه اليها ولكن القتال انتهى قبل وصوله الى الشرق الاقصى ومع ذلك بقي في الصين اربع سنوات واشترك في حربها الاهلية فكان ذلك واسطة للتعرف بشؤونها المحلية تمرساً اكسبهُ احترام حكامها وحبهم لهُ

وقاد جيشاً صينياً لقّب « بالجيش الدائم النصر » فانعم عليهِ بالسترة الصفراء وريشة الطاووس ورقي الى رتبة « مندرين ». وعاد الامبراطور فرقّاهُ الى رتبة تيتو اي ميجر جنرال في الجيش الصيني حتى عرف في الهيئة الاجتماعية في لندن بلقب غوردون «الصيني» . وانعمت عليهِ الملكة فكتوريا بنيشان الحمام ورتبة لفتننت كولونل في المهندسين الملكيين . فلم يبلغ الثلاثين حتى عدّ احد ابطال انكلترا الوطنيين

ولما عاد الى لندن حاولوا حرق البخور لهُ فلم يرقهُ ذلك بل آثر ان يترك وشأنهُ . ورحب بالفرصة التي سنحت لهُ اذ انتدب لاقامة حصون على نهر التايمز فدفن نفسهُ في ذلك العمل مدة خمس سنوات . وقضى ساعات فراغه في الاعمال الخيرية . وكان كثيرون من المرضى اذا حضرتهم الوفاة يدعونهُ اليهم ويفضلونهُ على رجال الدين الرسميين فكان يلبيهم مهما بعدت الشقة . ولكنهُ لم يكن يلبي دعوة الذين يدعونهُ لرياسة الاجتماعات الدينية لانهُ كان يمقت الظهور والتظاهر

وافضى كرههُ للظهور وبذلهُ نفسهُ عن غيره الى تفوّق كبار الضباط وصغارهم الاقاويل فيهِ فقصروا زهدهُ في امور الدنيا بشذوذ طباعهِ وغرابة اطوارهِ واستهدف بسبب ذلك لسخريتهم حتى بلغت سخريتهم وزارة الحربية . واتفق ان خلا منصب كبير في لجنة الدانيوب الاوربية فعين فيهِ حالاً مما دلّ على ان اهل الشأن لم يبالوا مثقال ذرة بما تقول الناس فيهِ

وفيما كان في الاستانة بصفة مهندس ملكي اجتمع بنوبار باشا وزير خارجية مصر في عهد اسماعيل باشا الخديوي . وكان السر صموئيل بأكر الحاكم العام للاقاليم الاستوائية ينوي الاستعفاء من منصبهِ وكان لا بدّ من انكليزي يحلّ محلهُ فأعجب نوبار باشا غاية الاعجاب بهِ فطلبت مصر من الحكومة البريطانية ارساله اليها فنبّهت طلبها

وكان مرتب السر صموئيل بأكر ١٠ آلاف جنيه في السنة فاصرّ غوردون على ان يخفض مرتبهُ هو الى الفي جنيه وقال « ان الفلاح يعطي هذا المال من عرق جبينهِ ومرتبي في لجنة الدانيوب الفا جنيه فليس هناك سبب يحملني على ان أدع مصر تدفع اليّ اكثر من هذا المرتب »

وسرّ المهندس الملكي بهذا الميدان الجديد الذي فتح امامهُ اذ رأى فيهِ فرصة لخدمة الانسانية . وكان يعرف ان اواسط افريقية اروج اسواق النخاسة فلذلك فسّر تعيينهُ في منصبهِ الجديد بانهُ وسيلة لمحاربة الرق في منبعهِ

وكتب الى شقيقتهِ سنة ١٨٧٣ وهو في لجة الدانيوب وقبل قبوله المنصب المصري يقول:

« ان الله اذن في ترك النخاسة وشأنها هذه السنين الطوال . ولما كانت قد خلقت مع القوم فهي في حاجة الى اكثر من حملة لاستئصال شأفتها . لتفتح البلاد اذاً لسقطت من تلقاء نفسها. اني اكره ان تفقد نفس واحدة في هذا السبيل وسأحاول منع كل حادث يحدث اذا ذهبت الى هناك »

وكتب اليها بعد ذلك باسبوع :

« اعتقد اذا استقرت احوال السودان ان الخديوي يمنع الاتجار بالرقيق ولكنهُ لا يرى السبيل الى ذلك واضحاً حتى يتمكن من التجوال في البلاد . ومن رأيي ان نفتحها بجعل البواخر تصل الى البحيرات . وفي اثناء ذلك اهتدي الى النخاسين فاسأل الخديوي ان يقبض عليهم »

وخير ما يوصف بهِ غوردون انهُ كان اغناطيوس لويولا (مؤسس فريق اليسوعيين) في القرن السادس عشر او متصوفاً انجليكانيًّا عيادهُ في السماء وقدماهُ على الارض . او عالماً يفهم نواميس الاقتصاد ويؤمن بالصلاة ويعبر تعاليم ادام سمث (الاقتصادي) اذناً صاغية وقلباً واعياً

وقد رأى بعين الخالم الخيالي الذي فيه خميرة من الحقائق ان النخاسة جزء لا يتجزأ من بناء افريقيا الاقتصادي فلذلك عزم ان يناوئها لا بأوامر عالية من الخديوي ولا بالصلاة والصوم بل باسكان الناس في السودان وايصال البواخر الى البحيرات كما قال وبفتح الاقاليم الاستوائية في وجه الحضارة

ونال غوردون الحظوة عند اسماعيل باشا في اول اجتماع بهِ فوضع فيهِ كامل ثقتهِ ومنحهُ سلطة لا حدَّ لها في منصبهِ الجديد وعين رئيساً لاركان حربه اميركيًّا اسمهُ الكولونل تشايلي لونغ من مريلند وولى اميركيًّا آخر هو الميجر وليم كيل منصباً حربيًّا آخر تحت قيادتهِ لمقاومة تجارة الرقيق . ثم سافر غوردون الى قلب افريقية

ولم يكد كيل يتولى منصبهُ في الخرطوم حتى توفي بالحمى . اما لونغ فانتدب لمهمة في اوغنده فعين اميركي آخر محلهُ هو الميجر پروت وكان ينوب عن غوردون في اثناء غيابهِ

ولم يمض زمان طويل حتى طلب من الخديوي ووزارة الحربية في لندن طلباً اثار مقاومتهما محاً وهو تعيين نخاس عربي اسمهُ ابو سعود في خدمتهِ . وكان السر صموئيل باكر قد قال عن ابو سعود انهُ مجرم لا يصلح وشهّر بهِ في العالم قائلاً انهُ اعظم نخاسي افريقية . ولكن ذلك كلهُ لم يمنع غوردون من ان يطلب اطلاق سراحه وتعيينه في خدمتهِ حاذياً في ذلك حذو باكر نفسهُ اذ جمع حرساً له من المجرمين ومعتادي الاجرام وهم من الذين سجنهم في احد كتبهِ

« اللصوص الاربعين » فوطم من لصوص الى حفظة للامن منفذين للقانون لم يخونوه مرة واحدة واشتهروا بالنبالة والأمانة والاخلاص له . ولما سافر من افريقية عين « وات الملك » من كبار النخاسين سابقاً لحفظ النظام والقانون في السودان الى حين وصول غوردون

ولكن يا كثر خالف غوردون في اختيار ابي سعود لخدمته وكان عنده اسباب حملته على ذلك وكتب في التيمس ينتقد هذا التعيين . ولم يكد غوردون يستخدم ابا سعود حتى رأى انهُ لا ينفعهُ فصرفهُ على عجل

ومن أغرب ما روى عنهُ في اوائل مقاومتهِ للنخاسة ان اول سرب من الرقيق اسره من النخاسين كان مؤلفاً من فتيات سودانيات جيء بهنَّ من بلدان تبعد مئات الاميال. فقال في نفسهِ : ماذا تريد هؤلاء الفتيات حقيقة غير الازواج ؟ ثم امر بهنَّ فحضرن امامهُ فسألهنَّ هل تتزوجن من جنودي ؟ فأجبنهُ بصوت واحد « نعم » . والتفت الى جنوده وسألهم السؤال عينه فأجابوا بما اجاب بهِ الفتيات . فقال «يا بنات اخترن ازواجكنَّ» ففعلن فزوج الفتيان بالفتيات . وكتب في مذكراتهِ في ١٩ سبتمبر سنة ١٨٧٧ يقول :

« لقيت صباح هذا اليوم قافلة من الرقيق وعددهم ٦٠ او ٨٠ رجلاً وامرأة وولداً وهم موثقون بالحديد . فماذا اصنع لهم ؟ هل اطلقتهم فمن يعنى بهم او من يطعمهم ؟ ومنازلهم بعيدة فمن يعيدهم اليها ؟ لذلك قررت ان اكره النخاس الذي معهم على فك قيودهم وابقائهم معهُ . والحق ان النخاس لم يؤذ احداً بشرائهم لأن شراء الرقيق محلل في مصر ولم يأخذهم من منازلهم . ولا علاج لهذه الحالة الا وقف النخاسة على الحدود»

وبقي غوردون يناوىء النخاسة حتى تخلى اسماعيل باشا عن عرش الخديوية سنة ١٨٧٩ وكان الخديو صديقه ومؤيده فلما أكرهت اوربا اسماعيل على الاعتزال رأى غوردون ان الأليق بهِ ان يرحل في اول فرصة . وترك افريقية وعين سكرتيراً خصوصيًّا للورد ريبون حاكم الهند ولكنهُ لم يلبث ان استعفى ثم جاءه تلغراف من السر روبرت هارت المفتش العام للجمارك الصينية يلحّ عليهِ في السفر الى الصين فسافر وساعد على منع الحرب بين الصين وروسيا

وعين بعد ذلك في مناصب مختلفة ثم عاد الى انكلترا فطلب اجازة للسفر الى فلسطين. وفيما كان فيها طلب منهُ ليوبولد الثاني ملك البلجيك ان يتولى ادارة ولاية الكنغو الحرة فقبل بشرط موافقة وزارة الحربية في لندن وعاد الى انكلترا للاستعداد للسفر اليها

ولكن «القسمة» حالت دون انفاذ هذا المشروع . ذلك انهُ لم يكد يصل الى سوئمبتن حتى جاءت الانباء بان جيش هكس باشا أُبيد في الابيّض ومات هكس وجميع الضباط الانكليز الذين كانوا معهُ . فروعت انكلترا كلها وضربت الصحف على هذه النغمة وتزعزعت وزارة غلادستون فانفذ غوردون الى القاهرة وهكذا انقذ وزارته. وبقي غوردون على الطريق عشرة أيام استردت

فيها البلاد صوابها وغلادستون رزانتهُ. فطلب غوردون انضمام الزبير (باشا) الى بعثته فاستنكر غلادستون ومن لفَّ لفهُ من كارهي النخاسة هذا الطلب لاشتهار الزبير بها . ووافقهم اللورد كرومر (السر افلن بارنغ حينئذ) على هذا الاستنكار اولاً فلم يسع غوردون الاَّ السكوت ولكنهُ لما سافر جنوباً جعل ينفذ الرسالة اثر الرسالة الى السر افلن ملحًّا في اقناع لندن بالموافقة على طلبهِ والحق يقال ان كرومر اقتنع بعد ذلك برأي غوردون وأيده في طلبهِ . ومما قالهُ غوردون

ان المصريين والانكليز طبعاً — سيتحولون قريباً عن السودان فتمسي هذه البلاد السوداء معرضاً للرجل الاسود . واقدر رجل اسود اعرفهُ هو الزبير . هو السوداني الوحيد الذي يستطيع اقامة حكومة منظمة في تلك الانحاء . فاذا اعتزلنا — ولا بدَّ من اعتزالنا — وجب ان نسلِّم مقاليد الامر الى رجل ما . فان لم يتولَّ الزبير امر رحيلي مع الحامية والمتكين الذين يريدون الرحيل فانهُ لا يسعني اذ ذاك الرحيل وان استطعتهُ تلاهُ مذبحة بين الاهالي. فقد يكون الزبير رجلاً شريراً ولكن الضرورة تحوجنا اليه الآن . فبأسم كل شيء مقدس ارجو منك ان تدعني استخدم الزبير

انقذ غوردون غلادستون ووزارتهُ من الهزيمة والخذلان ولكن غلادستون ترك غوردون يقاوم التيار ويغرق مفضلاً ذلك على ان يعهد في امر انقاذه الى وسيلة غير مستقيمة لكن معتولة (الزبير) . لذلك طاول غلادستون وسوَّف وانتظر واكثر الكلام . وقبل ارسالهِ الجواب الاخير كان المهدي قد اطبق على الخرطوم

وبعبارة اخرى ان الوزارة البريطانية ارسلت تلغرافاً من القاهرة الى الخرطوم تخبر غوردون فيها بانها لا توافق على استخدام الزبير ولكن يظهر ان هذا التلغراف لم يصل بسبب قطع الاسلاك . فقد قال اللورد كرومر في كتاب « مصر الحديثة » الذي كتبهُ « لا اظن ان هذه الرسالة وصلت الجنرال غوردون »

ويوميات غوردون لا تبقي مجالاً الى الارتياب في هذا الامر . وذهب غوردون الى قبرهِ وهو ينتظر جواب طلبهِ لاستخدام الزبير . وفيما كان غوردون بين الرجاء واليأس وقف غلادستون في البرلمان وقال « ان غوردون غير مكتنف . وموقفهُ موقف سلامة على ما نعلم »

ان غوردون لم يخن ولم يضحِّ بهِ ولم يتخلَّ عنهُ ولم يُسأ فهمهُ . لكن غلادستون الخطيب السياسي اصرَّ على درس عيني غوردون الخيالي وأبى ان يقرأ عقل غوردون صاحب الحقائق فقد كان هذا العقل سافياً شفَّافاً . وسجلات وزارة الحربية وسجلات جريدة التيمس والملحق الذي اضيف الى كتاب باكر « الاسماعيلية » وحلات الجمعية المضادة للرقيق على غوردون وكتابهُ عن اواسط افريقيا — وفيهِ ٤٥٦ صفحة — هذه كلها جعلت عدم فهم غلادستون لعقل غوردون امراً مستحيلاً ، ومع ذلك لم يفهمهُ . وقد اعماهُ عظم اغتراره بنفسهِ